العدد ١١

تشرين الثاني (نوفمبر)

السنة الخامسة عشرة

* *

Novembre 1967
No 11

15 ème année

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص. ب ٤١٢٣ بيروت ــ تلفون ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - LIBAN
B.P. 4123 - Tel. 232832

الادارة : شارع سوريا ــ بناية درويش

صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Propriétaire - Rédacteur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي ادريس

Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

العراء ...

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

ـ ١ ـ

كان الجندي يمشي في رأسه . فوق عينيه . يكاد حذاؤه الضخم ان يسحق انفه وفمه . ولم يكن يرى منه ـ الان ـ الا ساقيه وقدميه . ذلك انه كان يوشك ان يغفو ، هكذا كان شأنه منذ ايام : حين يحس النوم وهو يغمض عينيه ، يمشي الجندي في رأسه ، ولا يبقى منه الا المشي ، بآلته : القدمين ، وصوته : وقعهما . قدمين كبيرتين تملآن المدى كله ، بنعلين ممزقين عند الرأس والأطراف . تمشيان تمشيان تمشيان . بطيئتين حتى تكادا تتوقفان ، مسرعتين حتى تكادا تطيران بالجسم الذي تحملان ، خائفتين آمنتين ، متوترتين مطمئنتين . في تناقض كلي لم يكن يخرقه الا شيء واحد : هو ان القدمين كانتا ، وهو يوشك ان ينام ، تملآن المدى كله ، الصحراء والسماء ، اطار المشهد كله ، كصورة مضخمة على شاشة . وكان يعي ، فيما جفناه ينطبقان وهو يصارع النعاس بكل قواه ، ان الصورة لا تنمحي ، وانما يغشاها الظلام فحسب ، لان الصوت كان ينبعث اذ ذاك ، صوت القدمين ، وقعا رتيبا ، منتظما ، متناسقا ، كأنهما تداران بآلة ساعة . وكان على ثقة من ان الوقع سيظل يتردد في رأسه ، كطرقات مطرقة ، حتى ينام ارهاقا واعياء .

ـ ٢ ـ

حين دخل المكتب ، قالت له سلوى :

ـ الان خرج ابن عمك عاطف ، وقد جلب لك من باريس هذه الصحف والمجلات الممنوعة هنا .

ومد يده بلهفة ، ثم استدركها ، كأنما لسعتها عقرب ، او كأنما كان يمدها الى نار . ولاحظ انها تنظر اليه ، فقرر ان عليه ان يتناول الصحف ، وان يتغلب على خوفه . وقال ان هذه الصحف الاجنبية ، على ما فيها من دعاية مسمومة ، اصدق في سرد اخبارنا من صحفنا ذاتها . ولكن يده ظلت على الطاولة ، وظل هو ينظر اليها كأنها ليست يده ، كأنها جسم منفصل عنه ، جثة غريبة ، ملقاة هنا اتفاقا .

واقتربت سلوى ، فتناولت من الرزمة صحيفة اسبوعية ، وفتحتها على الصفحة الثالثة :

ـ انظر هنا .

ولم يكن له مفر من ان يلم الجثة ويحركها فتتحرك كالاخطبوط .

وامسك بالصحيفة ، ونظر الى الصورة .

ظل يتأمل سحناتهم ، وايديهم وراء رؤوسهم ، والذعر في عيونهم التي تتطلع الى فوهات البنادق والرشاشات تحملها ايدي نساء .

قالت سلوى :

ـ اقرأ ما كتب تحتها .

فلم يقرأ ، وانما تطلع اليها ، الى عينيها ، فاغمضتهما ، ثم اشاحت وهي تتمتم :

ـ نعم . هؤلاء نساؤهم هم ...

وشعر بأنها جديرة بالشفقة . فهم بأن يقول لها : « ونحن نساؤنا ورجالنا معا ... » ولكنه سرعان ما ايقن بأنه سيظلمهم مرة اخرى . سيظلم هؤلاء الذين كانوا يرقصون في الشوارع حين اذيع ان الحرب قد بدأت ، سيظلم اشعاع الفرحة في العيون ، سيظلم دموع البهجة تترقرق في الحدقات ، سيظلم الجذل يستخف الارواح فتطلقه زغاريد في الحناجر ، وسيظلم الايمان تمتلىء به الصدور توقا الى الميدان ، وتحرقا الى حمل السلاح ... حمل هذه البنادق والرشاشات التي يراها الان في ايدي نسائهم هم ...

ولم يقل لها شيئا ، بل قال لنفسه ان المرء اعجز من ان يتقي الصاعقة حين تنقض عليه .

وتململ في ضيق : مرة اخرى يلتمس المعاذير والمبررات ، لهم ، لنفسه ، بل حتى للقدر الذي ارسل الصاعقة ... ومع ذلك ، فماذا يجديه هذا ؟ بل ماذا يجدي هؤلاء الرافعي الايدي وراء الرؤوس ، الحفاة الاقدام ، المعانين الذل والهوان بين ايدي هاتيك اللواتي كانت امثالهن في بعض تاريخ قومه يوصفن بالقوارير ... ايتها القوارير الفاغرة المتلمظة التي لا هم لها الا ان تتلقى ما يقذفه الذكور في احشائها العطشى !

والتفت الى سلوى فجاة ، فكان في عينيها شبح استسلام . ونهض يحيط كتفها بذراعه ، كانما ليستغفر لمن ترمز اليهن عما خطر في باله . واستجابت هي للضمة ، فجاءه النذير المعهود انها ستبتهل اليه من جديد ، بنظراتها ، ان يرحم نفسه ويرحمها ويرحم الاولاد ، ويعود الى الواقع والحياة ، وينسى او يتناسى ...

ـ اذن ، لماذا ترينني هذه الصور ؟

فلم تجب . أترين ؟ هل هناك سبيل للنسيان ؟ حتى لو لم تكن ثمة صور ، حتى لو امحت الوثائق ، حتى لو مات الشهود ... ماذا تفعلين بالمخيلة ، هذه التي تخترع خيالا ادمى من الواقع واشد ايلاما من الحقيقة ؟

ومع ذلك ، والتماسا للغياب ، اخذ يقلب اوراقا ادارية على مكتبه ، ويصرف بعض الشؤون النمطية ، ثم ادرك انه كان عبثا ما يفعل . لم تكن الغيبة هنا تجيء وفوجيء بسلوى تقول له ، كانها حدست بما يعانيه :

ـ ما رأيك ؟ هل نغادر المكتب ؟ الديك عمل هام ؟

فقلب شفته السفلى ، ثم تناول صحف اليوم ، والصحف الفرنسية الممنوعة ، المهربة على يد ابن عمه ، فاغلق عليها الحقيبة ، وخرجا .

سألها ، وهو وراء المقود :

ـ الى اين نذهب ؟

فقالت :

ـ لا ادري ، الى حيث تريد .

ثم اضافت :

ـ الى البحر .

فأقر اقتراحها من غير ان يقول شيئا .

وترجلا عند الكورنيش ، فوقف وراء الحاجز الحديدي ينظر الى الماء ينبسط تحت عينيه سماء اخرى واطئة ، مقلوبة . وتنفس ملء رئتيه . ثم عاودته صورتهم . كانوا في الصحراء بلا شك ، تحت لهيب الشمس . اما هنا ، بين الامواج ، فان الموت نفسه سيكون رحيما بهم لو جاءهم . وانت هنا ، تنعم وحدك بهذه الرحمة ، ايها المثقف القذر !

قالت سلوى :

ـ ينبغي ان نعود . فقد آن موعد رجوع الاولاد

وادهشه انه لم يفكر باولاده منذ ايام . وقال في نفسه انه سيقبلهم حين يلقاهم بعد دقائق ، وسيضمهم الى صدره ، وسيبكي اذا استطاع .

وحين اضطجع في سريره ، وقلب صفحات المجلة الفرنسية الممنوعة ، رأى تلك الصورة الاخرى .

ـ ٣ ـ

دار بعينيه حوله : لم يكن ثمة الان الا رمال متماوجة . منذ قليل ، كان ما يزال هناك ، الى الشرق والغرب ، بعض اثار من بناء وشجر . اما الان ، فان المدى ينبسط امامه مكشوفا لا يقطعه جدار ، ولا يعترض سبيله ظل من شجرة .

ومع ذلك ، فانه لم يحس الراحة الا حين ادرك انه فقد حس الاتجاه ، حتى لا يدري بعد اين ترجل من السيارة . لقد بدأت المسيرة اذن ، ولا سبيل بعد للعودة . وشعر بفرحة صغيرة : هانذا الان وحيد ، وحيدا سأخوض هذه الصحراء ، بل سأخوضها مع مئات والوف وعشرات الوف . كما خاضوها جميعا ، وكما خاضها غسان ، وكما خاضها هذا الذي لا اعرف اسمه ، وانما رايت صورته في المجلة الممنوعة .

كان يبتعد ، سعيدا ، عن عالمه المالوف ، لا يحمل من متاع ناسه الا هذه المطرة في كتفه اليسرى ، وهذا الترانزستور في يده اليمنى . وكان يدخل ، سعيدا ، هذا العالم البعيد الغامض الذي لم يعرفه الا اولئك الذين خرجوا لدفاع عن حق ، وتوكيدا لكرامة .

قادم انا اليك ايها المجهول الغريب المرتمي نقطة صغيرة سوداء في ارض الصحراء الكبرى ، قادم اليك اواسيك في وحدتك واشاطرك قدرك ، قادم اليك لاعيش نقاءك وعريك في العراء .

ومضى يسير . وبدأ يحس لسع الاشعة على جبينه وجفونه . فعجب ان تكون سهام الشمس قد اصبحت حادة الى هذا الحد ، والساعة لم تتجاوز التاسعة . وذكر الساعة الثامنة ، اذ رافق سلوى الى المكتب ، بعد ان توجه الاولاد الى المدرسة . عفوك يا سلوى ومعذرة : لقد خدعتك حين زعمت لك اني قاصد الى مكتب البريد ، وعائد بعد

يسر دار الاداب ان تقدم

ادونيس

في ديوانه الجديد

المسرح والمرايا

ديوان كبير لشاعر كبير

يصدر قريبا

وقت قصير . وذكر ان بريد الاسبوع الماضي حمل اليهم رسالة من اهل غسان تروي ان امه تكاد تصاب بالجنون لاستمرار انقطاع انباء ابنها . أتراني سألقاك يا غسان في منعطف من هذا العالم الصغير الذي تأكله الان قدماي ، فأحدثك عن ابنك وزوجتك وامك الذين قضيت معهم ساعات في رحلتي الماضية ؟ لقد حملت ابنك بين ذراعي يا غسان ، ورفعته الى مستوى وجهي ، وحدقت في عينيه ثم قلت : « انهما عيناغسان » فأجهشت امك ، وترقرقت دمعة صامتة في عيني زوجتك الصامدة ، وسرعان ما احسست بذراعي تهنان وتتراخيان ، فكان لا بد لي من ان اضع ابنك على الارض وانا اقول : « انه يحتاج الى ذراعي غسان القويتين ! » فأين انت الان ايها الصامت البعيد ، وماذا تحمل ذراعاك في الصحراء ؟

وانتابته رعشة : ما يدريني ان صاحب هذه الصورة ليس هو ... ؟

وبدأ الظن يعذبه ، فيحس لسعته في صدره اشد ايلاما من لسعة الشمس على جبينه . وفتح المطرة فجرع منها جرعة ثم جرعتين ، ولكنه لم يجد ما كان يلتمسه . وفجأة ، احس الترانزستور في يده ، للمرة الاولى منذ بدأ مسيرته ، كأنه كان من قبل جزءا من جسمه . وبرم فيه زرا ، وادار زرا اخر ، فانبعثت اصوات غناء وموسيقى وانباء وتعليقات . وفورا شعر بالخيبة والحبوط : صوت عالمه المألوف .

وقلب الترانزستور في يده ، وصوته ما يزال ينبعث خليطا مشوشا ، ثم قذف به بعيدا من غير ان يخفت صوته . سيظل ساعات ، بل ربما اياما ، وهو يطلق زعيقه ، ولكن الصحراء لن تلبث طويلا حتى تخنقه .

واما انت ، ايها المجهول الغريب ، المرتمي نقطة سوداء في ارض الصحراء الكبرى ، أصحيح انك قد مت عطشا ، كما تقول الصورة ، حين انحنيت على ماء الساقية التي ظللت ثلاثة ايام تسعى اليها لاهث الانفاس؟

دعني اذن ايها الصديق البائس اعاني بعض عطشك في صحرائي هذه الصغيرة ، وخذ مطرتي ، فقد ترد اليك الروح ، فتجد الساقية قد جفت ، فتبل ريقك بجرعة من هذه المطرة ، ريثما تبلغ انت ايضا واحتك .

واحس نفسه خفيفا مطلق اليدين والروح ، فخلع قميصه ، واستقبل بصدره الشمس المحرقة ، وقال لنفسه : الان فقط ، قد يبدأ العذاب الحقيقي .

— ٤ —

احس لسعة في جبينه ، فعاودته ذكرى احتراق . ولكنه حين رفع يده يتلمس موقع اللسع ، اصطدمت بكيس بارد . وسمع صوتا يعرفه ، يقول بما يشبه الهمس :

ـ لقد افاق .

وفتح عينيه ، فطلعت فوقه خمسة وجوه او ستة يعرفها كان بينها وجه سلوى . وسمع صوته يقول :

ـ ماذا هناك ، واين انا ؟

فقالت له سلوى :

ـ لا تقلق . انت مصاب بحمى خفيفة . بضعة ايام وتعود الى البيت .

واغمض عينيه وهو يذكر رحلته الصغيرة . ثـم احس بيد تضم يده . مسكينة انت يا سلوى . لا بد اني سببت لكم كثيرا من المتاعب . ولكن ، هل كنت املك الا ان اذهب ؟ اتراني قد وعيت حقا انني ذاهب ؟

وفتح عينيه يريد ان يعتذر لها ببسمة او نظرة ، فرآها منحنية فوقه تنظر اليه نظرة استرحام . وابتسم لها فسارعت تقول :

ـ حمدا لله ... ولكن لماذا فعلت ذلك ؟

وعاد يغمض عينيه ، فعاد الجندي . لم يكن هذه المرة يمشي في راسه ، بل كان يمشي الى جانبه ، وكان هو يحاول ان يساوق قدميه مع خطوه ، وان يلحق به ، وان يسبقه احيانا ، كانما يود ان يمهد له الطريق ، فيعجزه ذلك في كثير من الاحوال . ولكنه كان مؤمنا بان عليه الا يتخلف عنه ابدا اذا لم يستطع ان يسبقه . وقال فـي نفسه انه سيخون قدره اذا تخلف عنه . معا ينبغي ان يمشيا ، ومعا ينبغي ان يسقطا او ينهضا .

وتنبه ، وهو ما زال مغمضا عينيه ، الى ان سلوى كانت تتكلم كلاما كثيرا فهم انه كان يتعلق به ، وبذلـك السائق الذي نقله الى المستشفى بعد ان وجده ملقى على حافة الطريق العام ، فاقد الوعي .

وقال في نفسه ان سلوى تتكلم اكثر مما ينبغي ، كمعظم النساء . وحين صمتت ، وظلت فترة صامتة ، كانما هي تحتج على انه لا يقول شيئا ، تمنى ان تعود الى الكلام . ولكنه هو الذي سألها :

ـ كيف حال الاولاد ؟

فقالت بلهجة خافتة :

ـ الصغير لا يكف عن البكاء .

وبقي ينتظر ان تمضي في حديثها ، ولكنها توقفت، فقال في نفسه ان سلوى تصمت احيانا اكثر مما ينبغي . وسألها :

ـ لماذا لا يأتون الى هنا ؟

قالت ببخل :

ـ لا اريدهم ان يروا وجهك المحروق .

واحس فمه يفتر عن بسمته الصفراء : يا للحـرق الارستقراطي المترف ! ثم احس البسمة تتحول الى كزازة: وتلك الوجوه المكوية بالنابالم ، المشوهة بألف ميسم من نـار ؟

وقالت سلوى بعد قليل :

ـ الحمد لله انكما عدتما معا !

فسألها بعينيه ، فأجابت :

ـ لقد عاد غسان ايضا .

فاغمض عينيه من جديد ، فرحا ، حزينا . احزنـه الا يحفظ الفارق في التشبيه ، مرة اخرى . ان يقـرن بغسان ، ان تشبه رحلته التافهة برحلته الكبيرة العظيمة. ولكنه مع ذلك ، لم يتمالك ان يستشعر بعض العزاء : ان يكون قادرا الان على أن يتصور تلك الرحلة ، ولو تصورا.

وبدأ صوت سلوى يحكي له حكاية تلك المسيرة ، كانما كانت تقرأها في رسالة .

كانت رسالة طويلة طويلة ، خيل اليه انها لن تنتهي قبل مرور ساعات وساعات ، كانت في طول ايام العذاب التي عاشها في الصحراء ، كاشفا صدره للسماء ، يتطهر في الشمس من الادران .

وكانت رسالة قصيرة قصيرة ، عجب كيف انتهت في لحظات ، ولم يكن فيها شيء تقريبا : لم يكن فيها الا دعوة للخروج الى العراء .

سهيل ادريس

صدر هذا الشهر

عصر السريالية

تأليف : والاس فاولي

ترجمة : خالدة سعيد

كتاب قيم يعالج اخطر واطرف حركة ادبية في عصرنا

منشورات نزار قباني

ص. ب ٦٢٥٠ ـ بيروت